جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

﴿أَلَمْ تَرَ﴾

في القرآن الكريم

دراسة في بلاغة الكلام المعجز

الدكتور

مبارك بن شتيوي ناصر الحبيشي

الأستاذ المشارك في قسم الأدب والبلاغة بكلية اللغة العربية
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

العدد الثالث والعشرون

للعام ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م

الجزء الثالث

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٩م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

هذا البحث ممول من عمادة البحث العلمي
في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ في القرآن الكريم ـ دراسة في بلاغة الكلام المعجز

القرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أعجز الخلق ببديع نظمه، وعجيب تأليفه، واصطفاء ألفاظه وتراكيبه.

ومن أساليبه المعجزة استفهاماته العجيبة، وتقريراته البديعة المتكررة في مقامات شتى؛ من مثل قوله عز اسمه ﴿**أَلَمْ تَرَ**﴾ .

وقد عنيت الدراسة بتتبع هذه الصورة الاستفهامية في القرآن الكريم، والوقوف على خلاصة ما قاله المفسرون والبلاغيون في معانيها، ودراستها وتحليل تراكيبها، واستنباط أسرارها في المقامات المختلفة.

وهذا ما يكشف عن جانب رفيع من جوانب بلاغة كلام الله المعجز.

Abstract

The Holy Quran is the book of Allah which falsehood does not approach it from before or behind it. The creation is incapable to face or even bring something in compare to its marvelous organization ،wonderful writing and the well-chosen words and phrases.

Some of the miraculous technical performance are its wonderful questioning ،magnificence and repetitive proofs in different aspects such as Allah the highest says (do not you see.(

Therefore ،this research aims to track this linguistic structure in the Holy Quran and to know about experts' opinions and explanations of its meanings in different sentences.

In addition ،to study and analyze the features of its compositions. Moreover ،to clarify the rhetorical aspects of it in different sentences .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله على نعمائه، وصلاته وسلامه على خاتم أنبيائه، وعلى آله وصحابته وأوليائه.

أما بعد؛ فإنَّ القرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ أعجز الخلق ببديع نظمه، وعجيب تأليفه، واصطفاء ألفاظه وتراكيبه.

ومن أساليبه المعجزة استفهاماته العجيبة، وتقريراته البديعة المتكررة في مقامات شتى؛ من مثل قوله عز اسمه ﴿ألم تر﴾ في مفتتح جملةٍ من آيات الكتاب العزيز.

وهذه الصورة الاستفهامية جديرة بالتأمُّل والتدبُّر والدرس والتحليل؛ للكشف عن جانب رفيع من جوانب بلاغة الكلام المعجز، واستجلاء بلاغة صورة من صور الاستفهام التقريري الذي يعد من أهم الأساليب القرآنية في التأثير والإقناع.

وقد عُني كثيرٌ من المفسِّرين ببيان معاني هذه الصورة، وخَّص عبد العظيم المطعني أقوالهم في كتابه الجامع: (التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم)، ووقف عند بعض شواهدها محمد الشيباني في بحثه: (بلاغة الاستفهام التقريري في القرآن الكريم).

وأفادت الدراسة من جهودهما في بيان معاني الاستفهام في هذه الصورة، ونهضت باستقراء مواقعها في القرآن الكريم، ودراستها دراسة مستقلة تكشف عن دقيق معانيها وخصائص تراكيبها، وأسرار مواقعها ومقاماتها.

وجاءت بعد هذه المقدمة في تمهيد ومبحثين خُصِّص أولهما لدراسة الألفاظ والتراكيب، والثاني للمقامات والأسرار، ثم خُتمت بتلخيص لأهم النتائج والتوصيات.

وقد اتجهت الدراسة إلى المنهج الوصفي التحليلي لتتبع مواقع هذه الصورة في القرآن الكريم، والوقوف على خلاصة ما قاله المفسِّرون والبلاغيون في معانيها، ودراستها، وتحليل تراكيبها، واستنباط أسرارها في السياقات المختلفة؛ مع عزو الآيات، وتوثيق الأحاديث، والالتزام بالأصول العلمية في البحث والتوثيق.

هذا، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

تمهيد

لمحة موجزة عن الاستفهام في القرآن الكريم

يعد الاستفهام بصوره المختلفة من أكثر الأساليب شيوعًا في القرآن الكريم، والأصلُ فيه طلبُ الفهم(١)، والعلمُ بشيءٍ لم يكن معلومًا من قبل(٢) بأدوات مخصوصة، هي: الهمزة، وهل، وما، ومن، وأي، وكم، وكيف، وأين، وأنَّى، ومتى، وأيانَ(٣).

ويكون لطلب التصوُّر، وإدراك المفرد وتعيينه؛ سواء أكان مسندًا أو مسندًا إليه، أو كان أحد متعلّقاتهما، ويكون لطلب التصديق، وإدراك نسبة شيءٍ منها إلى آخر؛ ثبوتًا أو نفيًا(٤)، ويُسأل بالهمزة عن التصوُّر والتصديق، وبـ(هل) عن التصديق، وبسائر الأدوات عن التصوُّر(٥).

وكثيرًا ما يخرج الاستفهام عن أصله إلى معانٍ أُخرى؛ تُستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال، ويُحمل عليها كلُّ استفهامٍ صادرٍ عن الله تعالى؛ لأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية، وإنما يستفهم عباده عما استقرَّ في نفوسهم(٦)؛ إعذارًا وإنذارا، وتقريرًا وإنكارا، وتنبيهًا وتعجيبا، وتسريةً وامتنانا، إلى غير ذلك من الأغراض الجليلة التي عُني العلماء بتتبُّعها والإشارة إلى ما فيها من قصدٍ إلى التنبيه، والإيقاظ وإثارة الفكر والحس.

---

(١) ينظر: مغني اللبيب: ٣٦/١.

(٢) ينظر: المصدر نفسه ٣٦/١.

(٣) ينظر: المفتاح: ٤١٨.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٤١٨

(٥) ينظر: الإيضاح: ٢٢٨/١-٢٣٠

(٦) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣٢٧/٢.

وقد وقف البلاغيون عند غرضين شائعين من هذه الأغراض، هما التقرير والإنكار، والمقصود بالتقرير: الإثبات، ويأتي لطلب الإقرار بأمرٍ قد استقرَّ عند المخاطب، وهو إنشاء لفظًا ومعنى، ويستدعي جوابًا؛ كما في قوله تعالى[١]: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾، وقد يأتي للتحقيق والتثبيت، وهو إنشاءٌ لفظًا خبرٌ في المعنى، ولا يستدعي جوابًا؛ كما في قوله سبحانه وتعالى[٢]: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي: قد قلتُ ذلك؛ فهو تحقيقٌ وتثبيتٌ لما قاله العبد الصالح لموسى عليهما السَّلام من قبل[٣].

أما الإنكار فيُراد به النفي، وهو إنشاءٌ لفظًا خبرٌ في المعنى –أيضًا–، ولا ينتظر فيه جوابٌ، ويأتي للتكذيب والإبطال: بمعنى أنَّ مضمونه غير واقع، وأنَّ مدعيه كاذب؛ كما في قوله تعالى[٤]: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ﴾ أي لم يكن ذلك، وقد يأتي للتوبيخ؛ بمعنى أنَّ مضمونه واقع، لكن فاعله ملوم؛ كما في قوله تعالى[٥]: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ، ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾[٦] أي: ما ينبغي أن يكون هذا منكم[٧].

---

(١) سورة الأعراف: من الآية: ١٧٢.
(٢) سورة الكهف: الآية: ٧٥.
(٣) ينظر: دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر: ٢٥٢.
(٤) سورة الإسراء: من الآية: ٤٠.
(٥) سورة الصافات: من الآية: ٩٥.
(٦) سورة الأنعام: من الآية: ٤٠.
(٧) ينظر: مغني اللبيب: ٢٤/١، ٢٥.

ويوجب البلاغيون –في الاستفهام بنوعيه– أن يلي المستفهم عنه الهمـــزة؛ إذا كانت هي الأداة[١]، لكن الظاهر من تطبيقاتهم أنَّ هذا الحكم أغلبيٌّ، ولـــيس كُليًّـــا؛ حتى عدل بعضهم عنه إلى القول بأنَّ الهمزة قد تكون للاستفهام عمَّا يعلمه المخاطب؛ سواءً أوليها المستفهم عنه أم لا[٢]، وقد جعلوا منه قولـــه تعـــالى[٣]: ﴿وَإِذْ قَـالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مع أنَّ المقصود هو نفي الفعل، وهو غير وال للهمزة، بل غير موجود في الكلام أصلًا[٤].

وفي الجانب الموضوعي يكثر الاستفهام عن فعل الرؤية نفيًا وإثباتًـــا، ويكـــون ماضيًا مثبتًا؛ نحو: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِـٱلدِّينِ﴾[٥]، ومضارعًا منفيًّا كما في هذه الصورة الشريفة من صور الاستفهام، ونظائرها في القرآن الكريم.

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ١١١–١١٣، والإيضاح: ٢٣٥/١.

(٢) ينظر: المطول: ٢٣٧.

(٣) سورة المائدة: من الآية: ١١٦.

(٤) ينظر: دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر: ٢٥٥، ٢٥٦.

(٥) سورة الماعون: الآية: ١.

المبحث الأول

الألفاظ والتراكيب

ورد هذا الأسلوب في القرآن الكريم إحدى وثلاثين مرَّة[١]، وهو مركَّبٌ من همزة الاستفهام، وأداة النفي (لم)، والفعل المضارع للمخاطب (ترى).

والهمزة هي الأصل في الاستفهام، وأُمُّ أدواته، ولا تدخل أداة من الأدوات على الحروف سواها، وتأتي للتصوُّر والتصديق، ولا يكون التقرير إلا بها على الأرجح من أقوال العلماء[٢].

وأداة النفي (لم) حرف جازم يقلب الفعل المضارع إلى المضي[٣].

والفعل (ترى) من الرؤية البصرية أو القلبية[٤] -على ما سيأتي- وقد يجتمعان للدلالة على معنى الرؤية الكاملة التي لا يحجبها ما يبدد النظر يمنةً ويسرة[٥]، وهو مجزوم بحذف حرف العلَّة، وقُرِئ في بعض المواضع ﴿أَلَمْ تَرْ﴾ بسكون الراء[٦]، وهو من إجراء الوصل مجرى الوقف، وفيه إشعارٌ بسرعة المبادرة إلى ما في حيزه، وأوثر المضارع في سياق النفي للدلالة على تحققه، والإيذان بتجدده، وتوافر دواعيه، واستحضار صورة متعلقه؛ فهو بمنزلة فعلين: ماضٍ في المعنى، ومضارع قد اتصل لفظه بالحاضر وما يستقبل من الزمان[٧].

---

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٣٥٨، ٣٥٩- رأى.

(٢) ينظر: مغني اللبيب: ١/١٧، ٢٤.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١/٣٦٥.

(٤) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ٢١٦- رأى.

(٥) ينظر: النظم القرآني في سورة الرعد: ٦٩.

(٦) ينظر: البحر المحيط: ٢/٥٦٠.

(٧) ينظر: بلاغة القرآن الكريم: ٢٦٣-٢٦٥.

والفاعل ضمير مستتر وجوبًا لأنه المخاطب، وهو النبي ع، ثم كل من يتأتى منه الخطاب من إنس وجان، وذكر وأنثى، ومؤمن وكافر.

وهذا التركيب قد يذكر لمن تقدم له علم بالأمر، وقد يذكر لمن لا يكون له علم به؛ لأنه من الظهور والوضوح؛ بحيث لا يكاد يخفى على أحدٍ ممن له حظٌّ من الخطاب(١).

شبه حال من لم ير الشيء بمن رآه، في أنه لا ينبغي أن يخفى عليه، وأنه ينبغي أن ينتبه إليه، ثم أجري الكلام معه كما يجري مع من رأى؛ قصدًا إلى المبالغة في شهرته وعراقته في التمكُّن والوضوح(٢).

وفصل بين الفعل ومتعلقه في كل مواضعه في القرآن الكريم بـ(أن)، أو بـ(كيف)، أو بـ(إلى) أو بـ(إلى) و(كيف) معًا؛ للإيماء إلى أنه جملة لا مفرد، وأنه هيئة مركَّبة تحتاج إلى مزيد نظر، وإعمال فكر؛ مع اختصاص كلٍّ منها بمعنى من التأكيد، والحال، والانتهاء.

ولهذا الأسلوب نظائر في كلامهم، قال النابغة(٣):

ألم تر أنَّ اللهَ أعطاكَ سورةً ترى كلِّ ملكٍ دونها يتذبذبُ

وفي الحديث: عن عقبة بن عامر ت أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((ألم تر آياتٍ أُنزلت الليلة لم ير مثلهنَّ قط ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾)) (٤).

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ١٥١/١.

(٢) ينظر: روح المعاني: ١٦٠/٢/١.

(٣) ديوانه: ٧٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه–كتاب الصلاة–باب فضل قراءة المعوذتين–حديث رقم: ٨١٤.

وعن عائشة ل قالت: إن رسول الله ﷺ دخل عليَّ مسروراً تبرق أسارير وجهه؛ فقال: ((ألم تري أنَّ مجززًا نظر آنفًا إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد، فقال: إنَّ بعض هذه الأقدام لمن بعض)) [١].

وقد أجروه مجرى المثل سوى أنهم غيَّروه لاختلاف الخطاب فقالوا: ألم تريا، وألم تروا، وألم ترين[٢]، وفي القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ﴾، ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾، ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾، وفيه: ﴿أَرَءَيْتَ﴾، ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ لمطابقة سياق الكلام في النفي والإثبات؛ مع اختصاص ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بخطاب النبي ع، وبكثرة وروده في القرآن الكريم، وبالاستقلال عن العاطف الذي يتوسط بين الهمزة والفعل في كثير من مواضع الصيغ الأخرى.

ولذلك قالوا: أشرف المعاني ما قيل فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ إقبالًا على النَّبي ﷺ، وعموم المعاني ما قيل فيه: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ﴾ إقبالًا على الأُمَّة؛ ليخاطَب كلٌّ على قدر ما قُدِّم له من هبة العلم والعقل[٣].

والمستفهم عنه في هذه التركيب قد عدي إليه الفعل بنفسه ست عشرة مرة، وعدي بحرف الجر (إلى) خمس عشرة مرة، وتعدية الفعل بنفسه هي الأصل في الرؤية؛ سواء أكانت بصرية أم قلبية، وتعديته بحرف الجر لتضمُّنه معنى النظر أو الوصول والانتهاء، أي: ألم تنظر أو يصل وينتهي إليه علمك[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه –كتاب الفرائض–باب القائف– حديث رقم: ٦٧٧٠، ومسلم في صحيحه–كتاب الرضاع–باب العمل–بإلحاق القائف الولد–حديث رقم: ١٤٥٩.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٤٧٧/٢/١.

(٣) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٣٨٧/٣.

(٤) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ٢١٧– رأى.

وذكر بعض أهل العلم أن تعدية فعل الرؤية بنفسه مطردة في كل موضع كان متعلقه معنى لا ذاتًا، وتعديته بحرف الجر مطردة في كل موضع كان متعلقه ذاتًا مادية محسوسة، لا معنى عقليًّا(١).

وذهب آخر الى عكس ذلك، وأن المقصد في الفعل المتعدي بنفسه كان لإثبات الأمور الحسية المشاهدة المنظورة، وأن الفعل المتبوع بحرف الجر من الرؤيا القلبية، والمعنى: ألم ينته إلى علمك(٢).

وهذا التناقض يظهر أن ما يخرج عن تصور كل منهما أكثر مما يدخل فيه، ومحاولة حصر المعاني في أنماط من التراكيب لا يخلو من تكلُّف تأباه طبيعة البلاغة التي يقصد فيها إلى مراعاة الأحوال، والاعتبارات المختلفة؛ مما لا طوق للإحاطة به في كلام معجز، لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد.

وقد عدي الفعل بنفسه في جملة من الآيات المكية التي تعنى بتقرير العقيدة، وسوق الأدلة الظاهرة على قدرة الله الباهرة؛ مما هو مدرك بالبصر والبصيرة؛ لكل أصحاب الفطر السليمة، والعقول المستقيمة، وعدي الفعل بحرف الجر في جملة من الآيات المكية والمدنية التي تسجل صورًا من أحوال الخلق المتباينة؛ مما يلفت الأنظار، ويثير العجب، ويدعو إلى أخذ العظة والعبرة.

وجاء مفعول الرؤية للمتعدي بنفسه جملة اسمية للدلالة على الثبوت، ثم تنوع تركيب هذه الجملة تنوعًا ثريّا؛ فغلب عليها أن تكون مؤكدة بـ(أن)، واسمها لفظ الجلالة (الله)، وخبرها جملة فعلية فعلها ماض أو مضارع.

---

(١) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٤٠٦/٤.

(٢) ينظر: بلاغة الاستفهام التقريري: ١٨٦، ١٩١.

وذلك في قوله تعالى[١]: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾[٢]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾[٣]، وقوله تعالى[٤]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ﴾[٥]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾[٦]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾[٧]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾[٨].

وقد جاء اسمها ضمير العظمة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[٩] وضمير الغائبين في قوله تعالى مخبرًا عن الشعراء: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾[١٠]، واسمًا ظاهرًا في قوله تعالى[١١]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) سورة إبراهيم: من الآية: ١٩.
(٢) سورة الحج: من الآية: ٦٣، وسورة فاطر: من الآية: ٢٧، وسورة الزمر: من الآية: ٢١.
(٣) سورة الحج: من الآية: ٦٥.
(٤) سورة الحج: من الآية: ١٨.
(٥) سورة النور: من الآية: ٤١.
(٦) سورة النور: من الآية: ٤٣.
(٧) سورة لقمان: من الآية: ٢٩.
(٨) سورة المجادلة: من الآية: ٧.
(٩) سورة مريم: من الآية: ٨٣.
(١٠) سورة الشعراء: من الآية: ٢٢٥.
(١١) سورة لقمان: من الآية: ٣١.

ولم تؤكد هذه الجملة في ثلاثة مواضع كان الاستفهام فيها عن الكيفية، وذلك في قوله تعالى(١): ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾(٢)، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾(٣).

والأصل في (كَيفَ) أن يُسأل بها عن الحال، لكنها إذا تلت أفعال القلوب تجردت عن الاستفهام للحال، ولمعان أخرى يقتضيها المقام(٤).

أما متعلق الرؤية للمتعدي بحرف الجر فقد جاء اسمًا موصولًا إلا في موضعين، وصلته جملة فعلية فعلها ماض أو مضارع، وذلك في قوله تعالى(٥): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾(٦)، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾(٧)، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾(٨)، وقوله تعالى(٩): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾(١٠)، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾(١١)، وقوله

(١) سورة إبراهيم: من الآية: ٢٤.
(٢) سورة الفجر: من الآية: ٦.
(٣) سورة الفيل: الآية: ١.
(٤) ينظر: مصابيح المغاني: ٢٣٧.
(٥) سورة البقرة: من الآية: ٢٤٣.
(٦) سورة إبراهيم: من الآية: ٢٨.
(٧) سورة المجادلة: من الآية: ١٤.
(٨) سورة الحشر: من الآية: ١١.
(٩) سورة آل عمران: من الآية: ٢٣، سورة النساء: من الآية: ٤٤، ومن الآية: ٥١.
(١٠) سورة المجادلة: من الآية: ٨.
(١١) سورة النساء: من الآية: ٧٧.

تعالى[١]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾[٢]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[٣]، وقوله تعالى[٤]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾.

وجاء اسمًا ظاهرًا في قوله تعالى[٥]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، وقوله تعالى[٦]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

والمستفهم في هذه الآيات هو الله سبحانه وتعالى، وهو العليم الخبير جلَّت قدرته، وإنما يستفهم عباده ليقررهم بقدرته، وعظم مخلوقاته، وحسن تدبيره لشؤون خلقه، وتعدد نعمه وآلائه التي لا يدركها الإحصاء، ولا يحصرها الاستقصاء.

وقد افتتحت هذه الآيات كلها بصيغة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ التي تفيد إلى جانب التقرير التنبيه، والتذكير، والدعوة إلى إعمال البصر والقلب والفكر؛ فيما سخَّره الله في هذا الكون الفسيح؛ فيتقرر لدى أصحاب القرائح السليمة أن الله هو وحده خالق هذا الكون؛ من سماواته، وأراضيه، وجباله، وبحاره، وأنهاره، ودوابِّه، وهو الذي أنزل من السماء ماءً ليخرج به النبات والزرع، ويحيي به الأرض، وهو الذي يسوق السحاب في السماء بمشيئته وقدرته، وهو الذي يُجري الفلك في البحر، وهو الذي تذلُّ له مخلوقاته، وتخضع لعظمته وجبروته، وتسبِّح له آناء الليل وأطراف النهار، وتسجد تعظيمًا لشأنه، وخوفًا من قهره وسلطانه، وهو الذي ضرب الأمثال، وأهلك الجبابرة المكذِّبين، وعصم أنبياءه، وحفظ بيته من مكرهم وكيدهم، ودافع عن رسوله ﷺ بتسليط الشياطين على أعدائه،

(١) سورة النساء: من الآية: ٤٩.
(٢) سورة النساء: من الآية: ٦٠.
(٣) سورة غافر: من الآية: ٦٩.
(٤) سورة البقرة: من الآية: ٢٥٨.
(٥) سورة الفرقان: من الآية: ٤٥.
(٦) سورة البقرة: من الآية: ٢٤٦.

وتقرير أن أحوال الشعراء مخالفة لحاله ﷺ[١].

كما تضمن متعلق فعل الرؤية في هذا السياق الاستفهامي تقرير جملة من أحوال الخلق وبعدهم عن الحق تعجيبًا من حالهم، وتحذيرًا من السير على طريقهم في الكفر والنفاق، وتزكية النفس، والمجادلة في آيات الله، وعدم الإذعان لها والامتثال لأمر الله، والتوكل عليه، والصبر عند لقاء العدو.

وتصدُّر جملة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذه المعاني العظيمة باب من أبواب البيان العالي الذي لا نظير له في كلام البشر، ولعظم شأنها واستقلالها لم ترد في أيِّ موضع من مواضعها معطوفة على ما قبلها؛ مع اختصاص تلك المواضع بلطائف وأسرار أوجبت الفصل.

وقد أجمع العلماء على أنَّ الاستفهام فيها ليس على حقيقته؛ لأن الله قد أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، جلَّت قدرته تعالى وتقدَّس علَّام الغيوب[٢].

وحمله عامتهم على ضربٍ من التقرير لا يستدعي جوابًا؛ لأنه خبر في المعنى؛ أي: قد رأيت أو علمت، عدل بهما إلى الاستفهام لما فيه من تشويق إلى عقبى الكلام كيف يكون، وإشراك المخاطب في تصور المعنى المراد التقرير به[٣].

وحمله بعضهم على الإنكار؛ لأن الإنكار نفي، ونفي النفي إثبات[٤]، قالوا: "وكلاهما حسن"[٥]، و"حقيقة التقرير إنكار"[٦].

---

(١) ينظر: بلاغة الاستفهام التقريري: ١٨٦.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٥٥.

(٣) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٩٣/١.

(٤) ينظر: مغني اللبيب: ٢٥/١، والإيضاح: ٢٣٨/١.

(٥) ينظر: المطول: ٢٣٧.

(٦) ينظر: الإتقان: ١٠٢/٢.

وغنيٌّ عن البيان أن الحاكم في تمييز هذا إنما هو المقام وسياق الكلام، والذوق، والملكة اللغوية، وصفاء القريحة، وكلها تأبى حمل ما تمحض للإنكار على التقرير، وما تمحَّض للتقرير على الإنكار(١).

واختلاف أفهام العلماء في شواهد لا يسوغ إلغاء الفروق بين تثبيت الأمر وتحقيقه، وحمل المخاطب على الإقرار به، وبين إنكار وقوعه وعدم الرِّضا عنه.

وقد نصَّ النحاة على أنَّ الهمزة تستعمل في الإثبات للتقرير أو الإنكار، فإذا دخلت على النافي فلمحض التقرير(٢)؛ نحو: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾(٣) فإن معناه بإجماع أهل العلم: قد شرحنا لك صدرك(٤)، وذكروا أنه لم يسمع في كلام العرب استفهام دخل على النفي إلا وهو مراد به التقرير(٥).

ومهما يكن؛ فإن المعنى الأظهر الذي خرج إليه هذا الاستفهام هو التقرير، وتحيط به في المقامات المختلفة معان أخرى تُستفاد من سياق الكلام، وقرائن الأحوال(٦).

والتقرير بعامة من أنجع الأساليب في دفع المخاطب إلى الاستسلام، والانقياد، والإقرار بالحقيقة المقررة، والأمر الواقع؛ لما فيه من إلزام بالحجة، وإلجاء إلى الاعتراف بمضمون الكلام؛ فهو يحيل الجملة الإنشائية جملة خبرية مثبتة ومحققة الوقوع، لا مجال

(١) ينظر: البلاغة الاصطلاحية: ١٦٥.
(٢) ينظر: شرح الكافية للرضي: ٤٨٢/٤.
(٣) سورة الشرح: الآية: ١.
(٤) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٩١/١.
(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٦٦٥/١/١.
(٦) ينظر: بلاغة الاستفهام التقريري: ٤٩، ٥٦- ٦٣.

فيها للتردد، أو الإنكار(١).

ومن أسراره في القرآن الكريم شد انتباه المخاطب، وإثارة نفسه بكلِّ حواسها، وبكل عضو نابض فيها؛ لتقبُّل الحقيقة المقررة في استسلام وإذعان(١).

وتختصُّ هذه الجملة الشريفة بتقرير الدلائل العظيمة، والأحداث العجيبة، والأحوال الغريبة، وإظهارها للبصائر ظهور المحسوسات للأبصار(٢).

وينشأ عن التقرير في سياقاتها المختلفة كثير من المعاني والأغراض، والدقائق والأسرار؛ من أهمها: التنبيه والتعجيب، والحثّ على النظر، والامتنان، والتعريض، والاستدلال، وغيرها مما يمكن الوقوف على بعض جوانبه في دراسة المقامات والأسرار.

(١) ينظر: بلاغة الاستفهام التقريري: ١٢٥.

(٢) ينظر: آل حم: ٢٥٨.

المبحث الثاني
المقامات والأسرار

أنزل الله تعالى كتابه الكريم هداية للخلق كافة؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وكان من أعظم مقاصده تقرير وحدانية الله تعالى، ودلائلها الكونية، والدعوة إلى الحق والهدى بأساليب بالغة الحكمة والاعتبار.

والآيات الكريمة المفتتحة بهذا الأسلوب الاستفهامي ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ كلها تضافرت في تقرير هذه المقاصد العظمى، وما يقع في سياقها من البشريات العظام، والآيات الفخام، والخطوب الجسام[١]؛ وذلك على النحو الآتي:

- **أولًا: إثبات وحدانية الله**

تصدَّر هذا التركيب الجاري مجرى المثل في الخطاب آيات من الذكر الحكيم في مقام إثبات وحدانية الله تعالى.

- قال تعالى[٢]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

لتقرير العباد بأنه خالق السَّماوات والأرض، وأن من خلق هذه الأجرام العظام هو على تبديل خلق آخر بهم أقدر، فهو سبحانه المتصرف في الكون الحقيق بالعبادة[٣].

والهمزة لتقرير مفعول الرؤية العلمية التي لا تقبل الشكّ، وتأكيد مضمون الجملة؛ لأنه من الحقائق العظيمة، وتقديم السماوات على الأرض لعظم ما في خلقها من آثار قدرة الله الباهرة.

---

(١) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٢١٣/١.

(٢) سورة إبراهيم: الآية: ١٩.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٤١/٥.

• وقال تعالى[١]: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

لتقرير العباد بما ضرب لهم من مثل لكلمة التوحيد بالشجرة الطيبة الفارعة الثابتة الأصل التي تؤتي ثمارها كل حين بإذن ربها، كذلك الإيمان أصله ثابت في قلب المؤمن علمًا واعتقادًا، وفروعه من الكلم الطيب، والعمل الصالح، والأخلاق المرضية، والآداب الحسنة، ينتفع بها وترفع إلى الله[٢].

ولا يخفى ما في ضرب الأمثال من تقريب المعاني المعقولة بالأمثال المحسوسة؛ لبيان مراد الله غاية البيان، وإيضاحه غاية الوضوح، وهذا من رحمته، وحسن تعليمه، وإعجاز كتابه الذي بهر العقول، وأخذ بمجامع القلوب[٣].

وقد أحاط التشويق، والحث، والتعجيب بهذا التقرير من كل جانب، إضافة إلى ما في هذا التمثيل البديع من ترغيب العباد بالتوحيد، وبيان ما فيه من خيري الدنيا والآخرة.

• وقال تعالى[٤]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

(١) سورة إبراهيم: الآية: ٢٤.

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ١٢٨/٤، ١٢٩.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٢٩/٤.

(٤) سورة الحج: الآية: ١٨.

لتقرير سجود المخلوقات لربها، وانقيادها لعظمته، وخضوعها لسلطانه؛ للدلالة على أنه وحده الرب المعبود، والملك المحمود، وأن من عدل إلى عبادة سواه فقد ضلَّ ضلالًا بعيدا[١]، وقد فصَّلت الآية في هذه المخلوقات بعد إجمال في نسق بديع، ختم بسجود كثير من الناس؛ ممن هداهم الله للإيمان.

وحفت بهذا التقرير جملة من المعاني، فيها الحث على التأمُّل، وتمجيد الله تعالى، والانقياد له سبحانه، واستشعار عظمته وجلاله؛ مما يجدد الإيمان ويدعو للسجود[٢].

● وقال تعالى[٣]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

لتقرير أن كل شيء في الوجود يسبح بحمده، ويصلي له، وقد أكد هذا التقرير بـ(أن) واسمية الجملة للدلالة على تحققه، وأوثر المضارع في سياقه لإفادة وقوع التسبيح في جميع الأوقات[٤].

كما تضمن التقرير التنبيه على جلال الله وعظمته، وخضوع الكائنات له، والتعريض بأولئك المعرضين الذين لم يسعهم ما وسع من في السَّماوات والأرض من المسبِّحين بحمده، المستسلمين له، المنقادين لأمره[٥].

والهمزة للتقرير؛ أي قد علمت علمًا يقينيًّا شبيهًا بالمشاهدة في القوة والرصانة بالوحي الصريح، والاستدلال الصحيح[٦].

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ٢٨٦/٥.

(٢) ينظر: بلاغة الاستفهام التقريري: ١٤٨.

(٣) سورة النور: الآية: ٤١.

(٤) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٣٧/٣.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٣٦/٣.

(٦) ينظر: إرشاد العقل السليم: ١٨٢/٦

وفي إفراد الخطاب إيذان بأنَّ الله تعالى قد أفاض على نبيِّه الكريم ﷺ أعلى مراتب النور وأجلاها، وبين له من أسرار الملك والملكوت أدقها وأخفاها[١].

• وقال تعالى[٢]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

لتقرير سعة علم الله تعالى، وإحاطته بما في السَّماوات والأرض من دقيق وجليل، وأنه مطلع على أسرار عباده حيث كانوا، وسيحاسبهم عليها يوم القيامة، وهذا ما يثير الوجل في قلوبهم، ويدعوهم إلى مراقبته وتعظيمه – عزَّ وجل[٣].

وقد افتتحت الآية بالعلم المؤكد، وختمت به؛ لإثبات هذه الصفة العظيمة من صفات كماله –جل جلاله، وتقدست أسماؤه– وتأكيد إحاطة علمه بالجزئيات والكليات، وأنه لا يغيب عنه شيء في الكائنات؛ لأنه قد أحاط بكل شيء علما[٤].

وإثبات هذه الصفة لله تعالى بأسلوب التقرير يجعل القلب يرود آفاق السماوات، وأرجاء الأرض مع علم الله المحيط بكل شيء في هذا المدى الواسع المتطاول من صغير وكبير، وخاف وظاهر[٥].

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ١٨٢/٦.

(٢) سورة المجادلة: الآية: ٧.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٣٢٢/٤.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٣٢٢/٤.

(٥) ينظر: بلاغة الاستفهام التقريري: ١٣٩.

- **ثانيًا: إثبات الحقائق الكونية**

افتتحت جملة من الآيات الكريمة الواردة في مقام إثبات الحقائق الكونية بهذا الاستفهام التقريري؛ للدلالة على قدرة الله الباهرة، وحكمته البالغة، وسلطته القاهرة.

- قال تعالى[١]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾.

يلفت هذا القول الكريم الأنظار إلى آية كونية مشاهدة بنور البصر والبصيرة؛ للدلالة على كمال قدرته تعالى، وما الظل والأحوال التي تعتريه إلا أمارة وعلامة على التدبير الإلهي الحكيم، وينشأ من هذا حثٌّ على التأمُّل والاعتبار، وبناء الإيمان على النظر في دلائله وموجباته[٢].

وفي التعدية بحرف الغاية إشارة إلى عظم المقام، وعلو الرتبة؛ حتى مع أقرب الخلق منزلة، وأعلاهم مقاما[٣]، وإيثار اسم الرب تبارك وتعالى لما فيه من معاني الربوبية والخلق والإيجاد، وإضافته إلى ضمير صاحب الرسالة للتلطف في الخطاب، وتسرية الهموم عن قلبه ﷺ؛ جرَّاء عناد قومه[٤].

ولفظ (كيف) مجرَّد عن الاستفهام للتعجيب مما في سياقه من بديع الصنع، ولفت الأذهان إلى هذه الحقيقة الكونية، وما فيها من دلائل الإيمان[٥].

---

(١) سورة الفرقان: الآية: ٤٥.

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ٤٨٣/٦، ٤٨٤.

(٣) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٣٩٧/١٣.

(٤) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٧١/٣.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٤٠/١٩/٨.

● وقال تعالى[١]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

● وقال تعالى[٢]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.

● وقال تعالى[٣]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

تقرر الآيات هذه الحقيقة الكونية الظاهرة الدالة على قدرته تعالى، ثم تفردت كل آية في تقرير ما جاء في سياقها من إظهار آثار قدرة الله الباهرة، والامتنان على عباده، وتمجيده –عز وجل–، وبيان اختلاف المخلوقات بما فيها الإنسان، وأن هذا الاختلاف جبلّي، وناموس كوني، يستدل به على مشيئة الله تعالى وحكمته، وسعة علمه، وتذكر أولي النهى بدورة حياة الإنسان من أول نشأته إلى أن يوارى الثرى جثة هامدة؛ قبل أن ينادى به إما إلى جنة وإما إلى نار[٤].

وصُدِّرت هذه الآيات بهمزة الاستفهام وحرف النفي لإفادة مزيد التقرير، وبالخطاب العام لئلا تختص الرؤية براء دون راء لفخامة الأمر[٥].

---

(١) سورة الحج: الآية: ٦٣.

(٢) سورة فاطر: الآية: ٢٧.

(٣) سورة الزمر: الآية: ٢١.

(٤) ينظر: بلاغة الاستفهام التقريري: ١٥١.

(٥) ينظر: فتوح الغيب: ٦٤٦/١٢.

وجاء التعبير بالماضي (أنزل)؛ لأن المقام مقام تقرير يناسبه تحقق الوقوع، وأوثر تنكير لفظ الماء لتفخيم شأنه، وبيان كثرته[١]، واختلفت الأفعال الواقعة بعد إنزال الماء من السماء على نحو يظهر دقة النظم القرآني، وثراء معانيه في تصوير أحوال الأرض في الإنبات، والانتفاع بالماء، واقترنت هذه الأفعال كلها بالفاء للإلماح إلى أن ما قبلها سبب فيما بعدها، وأنها مرتبة على إنزال الماء من السماء لا على الرؤية؛ لذلك كان الرفع واجبًا في قوله: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ لأنه ليس جوابًا للاستفهام في صدر الآية، بل هو مسوق لبيان فوائد إنزال الماء من السماء[٢]، وعدل إلى صيغة الاستقبال في الاخضرار لاستحضار صورته المبهجة، والإشعار بتجدده، وبقاء أثر الإنزال زمانًا بعد زمان[٣]، والتفت من الغيبة إلى التكلم في قوله (أخرجنا) لتفخيم الأمر، والتنويه بتمام النعمة، والامتنان على العباد[٤].

وكل هذه المعاني تتآزر في بيان ما سيقت له الآية من تقرير هذه الحقيقة الكونية الدالة على قدرته تعالى، وحكمته، وعظيم سلطانه.

وذهب الطاهر ابن عاشور إلى أن الاستفهام في آية الحج إنكاري؛ نزّلت غفلة كثير من الناس عن الاعتبار بهذه النعمة منزلة عدم العلم بها؛ فأنكر ذلك على الذين أهملوا الشكر والاعتبار[٥]؛ مع أنه رحمه الله حمل نظيرتيها على التقرير[٦]، وكان قد صرح في أول تفسيره أنه لم يسمع في كلام العرب استفهام دخل على النفي إلا وهو

(١) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٣٩٩/٢.
(٢) ينظر: الكشاف: ٣١/٣.
(٣) ينظر: البحر المحيط: ٥٢٣/٧.
(٤) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٣٠٧/٣
(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٣١٨/١٧/٧.
(٦) ينظر: المصدر نفسه: ٣٠٠/٢٢/٩، ٢٣/٩/ ٣٧٧.

مراد به التقرير[١].

●وقال تعالى[٢]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

والمعنى أن الله سخَّر ما في ظاهر الأرض وباطنها؛ لينتفع به الناس في معايشهم، وسخَّر السفن تجري في البحار بنواميسه، وحفظ الكون في نظام دقيق لا تقع فيه السماء بأجرامها على الأرض إلا بإذنه في ذلك اليوم الذي تنفطر فيه السماء، وتتهاوى فيه الكواكب، وهذا بفضل الله ورحمته، ومن دلائل قدرته المطلقة وربوبيته المشاهدة بالعيان، الحاضرة في الأذهان.

وقد جاءت الآية في سياق الآية السابقة؛ لذلك حمل ابن عاشور الاستفهام هنا – أيضًا– على الإنكار[٣]، والذي عليه المفسرون قاطبة أن الاستفهام في الآيتين للتقرير؛ مع ما يكون في سياقه من التذكير والعظة والاعتبار[٤].

ولفظ التسخير يشير إلى تهيئة الشيء للانتفاع به دون امتناع، ولم يأت فعله في القرآن الكريم إلا ماضيًا؛ لتحقق وقوعه كل آن ودوامه، وتجدد الانتفاع به، وعدل إلى المضارع في ﴿تَجْرِى﴾ لاستحضار الصورة في الذهن؛ لمكان النعمة فيها، وفي ﴿يُمْسِكُ﴾ لبيان أن عناية الله في إمساكها لا يخلو منها زمان، وفي قوله ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ و ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ احتراس بديع لدفع توهم أن الفلك تجري في البحر دون تدبيره تعالى، وأن السماء يمكن أن يحدث لها شيء دون إذنه، فهو المالك المتصرف الحافظ لعباده

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٦٦٥/١/١.

(٢) سورة الحج: الآية: ٦٥.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٢١/١٧/٧.

(٤) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٤٠١/٢.

الرؤوف الرحيم بهم[١].

● وقال تعالى[٢]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

يقرر الله نبيه الكريم ﷺ وعباده المستبصرين بهذه الحقيقة الكونية الماثلة للعيان، بإنشاء السحاب شيئًا فشيئا، وسوقه قليلًا قليلا؛ ليجتمع فيكون سحابًا متراكمًا كالجبال، ينزل منه المطر والبرد؛ فيصيب برحمة الله وحكمته موضعًا دون آخر، وأناسًا دون آخرين، وهذا من الدلائل العظيمة على كمال قدرته –تعالى–، جاء في سياق تقرير وحدانيَّته وتسبيح المخلوقات له عز وجل.

وفي لفظ الإزجاء تصوير لإثارة السحاب بين السماء والأرض، وانسياقه برفق قليلًا قليلا، وشيئًا فشيئا، وإيثار المضارع على الماضي؛ لاستحضار تلك الصورة الدالة على القدرة الباهرة، وتجدد هذه السُّنَّة الكونية في كل وقتٍ وآن، والتعبير بـ(ثم) مرتين، وبالفاء بعد ذلك لبيان مراحل تكون السحاب ونزول المطر؛ بإذنه تعالى، وفي ذكر الجبال استعارة بديعة؛ شبه فيها السحاب المتراكم بالجبال في هيئتها وضخامتها تشبيهًا يطابق الواقع المشاهد[٣].

● وقال تعالى[٤]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٢/٤٠١.

(٢) سورة النور: الآية: ٤٣.

(٣) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٣/٤٠، ٤١.

(٤) سورة لقمان: الآية: ٢٩.

يلفت الله –تعالى– أنظار العباد في هذا الخطاب الكريم إلى تعاقب الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر آيتين لكل منهما، وما في ذلك من الدلائل الباهرة على كمال قدرته عز وجل.

والإيلاج: هو الإدخال بيسر ولطف(١)؛ فإذا حلَّ أحدهما ارتحل الآخر شيئًا فشيئا، وما زاد في أحدهما يكون قد نقص من الآخر(٢)، وإيثار المضارع لتجدد التعاقب واستمراره.

وجاء فعل التسخير ماضيًا كما في سائر القرآن لتحقق وقوعه ابتداء، وبقائه إلى أن يشاء الله، وتقديم الشمس على القمر لأنها الأصل في ضوئه(٣).

وفي النظم الحكيم ما يُسمَّى في علم البديع بالعكس والتبديل، وهو تقديم جزء من الكلام وتأخير آخر، ثم تقديم المؤخر وتأخير المقدَّم(٤)؛ لتكامل المعنى، وزيادة تلاحم الكلام؛ فقدم الليل وأخر النهار، ثم قدم النهار وأخر الليل؛ لتكاملهما، ولأن نقص أحدهما زيادة في الآخر.

وقد ذهب ابن عاشور / إلى أنَّ الاستفهام في صدر الآية لإنكار عدم الرؤية؛ بتنزيل العالمين منزلة غير العالمين؛ لعدم انتفاعهم بعلمهم(٥)، لكن التركيب والمقام لا يحتملان ذلك؛ كما تقدم، فالتركيب مختص بالتقرير، والكلام مسوق للفت الأنظار إلى ما استقرت رؤيته؛ لقصد الامتنان على العباد، وبيان كمال قدرته تعالى، وهذا لا يناسبه القول بالإنكار(٦).

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ٥٥٦– ولج.
(٢) ينظر: تفسير المراغي: ٢٩/٧.
(٣) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٢٥٩/٣.
(٤) ينظر: الإتقان: ١١٨/٢.
(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ١٨٥/٢١/٨.
(٦) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٢٥٧/٣.

● وقال تعالى[١]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الآية السابقة للتقرير والامتنان، والاستدلال على باهر قدرته، وغاية حكمته، وشمول إنعامه بهذه الوسيلة الكبرى التي سخَّرها الله تعالى للإنسان، وألهمه صنعها وإتقانها وقوانينها؛ لتحمله وأثقاله في البحر بفضل الله ورحمته؛ إذ لا حافظ لها إلا هو[٢]، وقد ذيلت الآية بتأكيد الغاية من الكلام، والاستدلال بالحقائق الثابتة على ربوبيته، وكمال تفرده عز وجل.

● **ثالثًا: القصص القرآني**

افتتح بعض القصص في القرآن الكريم بهذا الأسلوب التقريري للفت الأنظار إلى ما فيها من العبر والعظات.

● قال تعالى[٣]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

وهذا هو أول موضع يرد فيه تركيب ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ في القرآن الكريم، وافتتحت به هذه القصة الموجزة العجيبة لأولئك القوم الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت فأماتهم الله ثم أحياهم؛ ليعلموا أنه لا مفرَّ مما قدره الله تعالى، وذلك لئلا نسلك ما سلكوه فنحجم عن القتال في سبيله[٤].

---

(١) سورة لقمان: الآية: ٣١.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٧٧/٧.

(٣) سورة البقرة: الآية: ٢٤٣.

(٤) ينظر: البحر المحيط: ٥٧٧/٢.

وتعدية الرؤية بحرف الجر على تقدير كونها بمعنى الإبصار؛ باعتبار معنى النظر، وعلى تقدير كونها إدراكًا قلبيًّا لتضمين معنى الوصول والانتهاء؛ على معنى ألم ينته علمك إليهم.

وخبر أولئك القوم سبق نزول القرآن بزمن طويل، لكنه اشتهر حتى لكأنه يقع ساعة الخطاب الذي جاء بهذا الأسلوب التقريري لاستحضار تلك الواقعة، وصورة الألوف الهائمين على وجوههم خوفًا وهلعًا؛ فوقعوا فيما فرُّوا منه؛ فعاملهم الله بنقيض مقصودهم، وأماتهم عن آخرهم، ثم تفضَّل عليهم فأحياهم؛ ليكون ذلك آية على قدرته، وترغيبًا في الجهاد، وترهيبًا من التقاعد عنه، وأن ذلك لا يُغني عن الموت شيئا[١].

وقد أجملت القصة وطويت تفاصيلها؛ لأنَّ القصد في قصص القرآن إلى العبرة والعظة، ومن ثم لم يذكر إلا ما تمس الحاجة إليه من الفائدة، أما ذكر التفاصيل والجزئيات، فليس من منهج القرآن، وربما اشتغل بذلك عن مقاصدها على ما فيه من خلاف قد يذهب الثقة بالقصة من أصلها[٢].

- وقال تعالى[٣]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ٣٠٢/١، ٣٠٣.

(٢) ينظر: تفسير المراغي: ٣٦٥/١.

(٣) سورة البقرة: الآية: ٢٤٦.

يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

هذه قصة أخرى من قصص القرآن افتتحت بهذا الأسلوب التقريري للاعتبار والترغيب في الجهاد؛ أخبر فيها –عز وجل– أن أهل الرأي من بني إسرائيل لما رأوا تفرق كلمتهم، وتسلط الأعداء عليهم من بعد موسى ÷؛ طلبوا من نبيهم أن يختار لهم ملكًا ليقاتلوا في سبيل الله؛ فجادلوا، ولم يسمعوا ويطيعوا، إلا فئة قليلة منهم، أطاعت وصبرت وقاتلت؛ فكتب الله لها النصر، واجتمعت كلمتهم بعد تفرق في دولة قوية؛ جمع الله فيها الملك والنبوة لداود وسليمان عليهما السلام(١).

وأتت هذه القصة وسابقتها بين يدي الأمر بالقتال؛ تشجيعًا للمؤمنين، وحثًّا على الجهاد، وطلب الشهادة، وإعلامًا أنه لا مفرَّ مما قضى الله(٢)، واحتجاجًا على أهل الكتاب بإنبائه ع بما لا ينفون صحته؛ مع كونه أُميًّا لم يقرأ كتابًا، ولم يدارس أحدًا،

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ١/٣٠٠-٣٠٣.
(٢) ينظر: البحر المحيط: ٢/٥٦٣، ٥٦٤.

وكذلك على مشركي العرب إذ من قرأ الكتب يصدقه في إخباره بما جاء به؛ مما هو في تلك الكتب(١).

وفصلت هذه عما قبلها لاستقلالها، وجاءت مفصَّلة؛ خلافًا لسابقتها؛ لمكان العبرة في بعض أحوالهم، وأسباب ضعفهم وانتصارهم؛ لنحذر مما وقعوا فيه من القبائح، ونقتدي بما هدوا إليه من المحامد(٢).

وقد تضمَّنت القصة في خاتمتها دعاءً عظيمًا عند لقاء العدو، هو قولهم: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

مراعين في ذلك ترتيبًا بديعًا؛ حيث قدموا سؤال إفراغ الصبر الذي هو ملاك الأمر، ثم سؤال تثبيت الأقدام المتفرع عليه، ثم سؤال النصر الذي هو الغاية القصوى؛ فاستجاب الله دعاءهم، ونصرهم على عدوهم(٣).

● وقال تعالى(٤): ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي ألم ينته إلى علمك الذي يبلغ مرتبة اليقين خبر ذلك الملك الذي تجبَّر، وادعى الربوبية، وعارض نبي الله إبراهيم في ربوبية ربه؛ فبين له إبراهيم بالحجج

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٢/٥٦٤.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢/٥٧٧.
(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: ١/٢٣٩.
(٤) سورة البقرة: الآية: ٢٥٨.

القاطعة ما يزيل تلك الشبهات، وفلج عليه بحجته[١].

وقد ذكر نبي الله إبراهيم باسمه الظاهر في ثلاثة مواضع، وطوي اسم الذي حاجه؛ للتنويه برفعة شأن إبراهيم ÷، واحتقار الذي كفر وحاجه بالباطل[٢].

وفصلت جمل الحوار لتنزليها منزلة جواب على سؤال مقدر؛ نشأ عن الجملة الأولى، تقديره: ماذا قال؟[٣].

وختمت المحاجة بتذييل مقرر لمضمونها، ونتيجة مؤكدة لسياقها، والتعبير في الفاصلة بـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بدلًا من الكافرين؛ كما هو متبادر إلى الذهن من قوله: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ لإفادة العموم والشمول في عدم هداية من لا يستحقون الهداية؛ فالظلم أعم من الكفر، وأشده ظلم النفس بالكفر، وعبادة غير الله تعالى، والإشراك به[٤]؛ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٥].

والاستفهام للتقرير من أنجع الأساليب في الحجاج، وأكثرها تأثيرًا وإقناعا؛ لذلك كانت هذه المحاجة في مجملها استدلالًا على ما ذكر قبلها من ولاية الله للمؤمنين، وولاية الطاغوت للكافرين، وإقامة البراهين على توحيده وربوبيته –جل وعلا–[٦]، لذلك لم يعطف الكلام على سابقه؛ لأنه دليل عليه، وبيان له بشاهد عملي جرت أحداثه على أرض الواقع[٧].

---

(١) ينظر: تفسير المراغي: ٣٨٩/١.

(٢) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ١٤٣/١.

(٣) ينظر دلائل الإعجاز: ٢٤٠.

(٤) ينظر: خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم: ٢٠٢، ٢٠٣

(٥) سورة لقمان: من الآية: ١٣.

(٦) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٢٥١/٢.

(٧) ينظر خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم: ١٩١.

● وقال تعالى[١]: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾.

تصدر الاستفهام التقريري هذا الإيجاز المتناهي في البلاغة لخبر ثلاث من أعظم الأمم الغابرة، طغوا وتجبَّروا؛ فأوقع الله بهم شديد العذاب، وأخذهم أخذ العزيز الجبار؛ ليكون في ذلك زجر لهؤلاء المكذبين، وتثبيت للرسول ﷺ، والمؤمنين الذين اتبعوه وناصروه، وتطمين لقلوبهم بأن أعداءهم سيلقون ما يستحقون من جزاء[٢].

وقد أُجمل في هذا المقام ما أوقعه الله بتلك الأمم من العذاب؛ مما جاء مفصلًا في غير موضع من الكتاب الكريم؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾[٣].

والحكمة في تكرار قصص هؤلاء، وذكرها على طريق الإشارة في مواضع، وبالتفصيل في مواضع أخرى؛ شهرتهم واستفاضة أخبارهم، وشدة نكال الله بهم، واختلاف الغرض والعبرة من ذكرهم بين مقامٍ وآخر، ولا شك أن كل مقام من الكلام له لون من بسط وإيجاز لا يكون لغيره[٤].

---

(١) سورة الفجر: الآيات: ٦– ١٣.

(٢) ينظر: تفسير المراغي: ٤١٣/٩.

(٣) سورة الحاقة: الآيات: ٥–١٠.

(٤) ينظر: تفسير المراغي: ٤١٥/٩.

والمراد بالرؤية –هنا– إدراك ما حلَّ بتلك الأمم حتى لكأن المخاطب يراه رأي العين، ولفظ كيف في هذا السياق مجرد من الاستفهام للدلالة على الحال فقط، والتقدير: ألم تر فعل ربك بهؤلاء، وإضافة اسم الرب تبارك وتعالى إلى كاف الخطاب لتشريف النبي ﷺ أولًا وتأييده، ثم للامتنان على خلقه، وإظهار ربوبيته –عز وجل– لكل مخاطب(١).

وقد جاء ذكر الأمم في نسق تاريخي بآيات قصيرة رصينة، فواصلها مختومة بقلقلة كبرى بعد مد؛ مما يضفي عليها قوة، وشدة وقع تهز النفوس، وتثير الوجل في القلوب.

● وقال تعالى(٢): ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

افتتحت السورة الكريمة بهذا التركيب ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم يفتتح به غيرها، وبه سميت في بعض الآثار(٣)، وكذلك عنونها البخاري في صحيحه(٤)، وسميت في جميع المصاحف وكتب التفسير سورة الفيل؛ لاختصاصها بهذه الحادثة، وقصرها عليها.

وكان أبرهة الأشرم قدم بجيشه من اليمن والأحباش لغزو مكة، وهدم البيت الحرام؛ فسلط الله عليهم أسرابًا من الطير؛ حصبتهم بما كانت تحمله بمناقيرها وأرجلها من حجارة؛ فأهلكتهم عن آخرهم، وكان ذلك عام مولد النبي ﷺ (٥).

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٣١٨/٣٠/١٢.

(٢) سورة الفيل: آياتها: ١–٥.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٠١/٢٠.

(٤) ينظر: الجامع الصحيح: ١٦٤.

(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٥٤٩/٤– ٥٥٢.

وعبر عن العلم بالرؤية؛ لأنه مساو لها في قوة الثبوت والوضوح الناشئ عن الرؤية والمشاهدة؛ لتواتر خبر هذه الحادثة واستفاضته؛ حتى كانوا يؤرخون بعامه(١).

وتعليق الرؤية بكيفية فعله –جل وعلا– لبيان أن هذه الواقعة كانت على كيفية هائلة، وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرته تعالى، وكمال علمه وحكمته، وشرف رسوله ﷺ؛ فقد كانت هذه الحادثة من إرهاصات مبعثه ﷺ(٢).

وجاء الاستفهام للتقرير، والتعجيب مما حصل، والامتنان على النبي ﷺ وقومه بأن حفظهم وبيته في عام مولده، والتعريض بكفران قومه هذه النعمة، وتحذيرهم من الكيد لحرماته وأوليائه؛ لئلا يحل بهم ما حل بأصحاب الفيل(٣).

وقد بيّن الاستفهام الثاني الاستفهام الأول، وفصّل ما كان فيه مجملًا؛ لذلك لم يعطف عليه؛ لما بينهما من كمال الاتصال.

- **رابعًا: بيان أحوال الخلق وانصرافهم عن الحق**

تصدر هذا التركيب اللافت للنظر جملة من الآيات الكريمة تسجل على طوائف من الناس انصرافهم عن الحق، وابتعادهم عن النهج القويم.

- قال تعالى(٤): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.
- وقال تعالى(٥): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٤٣-٦٢، ١٥٨.
(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: ١٠/ ٢٨٥.
(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٨٧، والتحرير والتنوير: ١٢/٣٠/٥٤٤، ٥٤٨.
(٤) سورة آل عمران: الآية: ٢٣.
(٥) سورة النساء: الآية: ٤٤.

وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾.

• وقال تعالى[١]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾.

لقد عرف هؤلاء الحق في الكتب المنزلة على أنبيائهم، لكنهم لم يرضوا بالاحتكام إلى ما أنزله الله، ورغبوا عن الهدى، ولم يؤمنوا به، وسعوا لإضلال الناس، والصد عن سبيله.

وجاء وصفهم -هنا- بـ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وفي سائر القرآن بـ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أو ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لأن القصد إلى فئة مخصوصة من أحبارهم الذين عرفوا كثيرًا من الحق، وكانوا يعرفون النبي ﷺ بصفته في كتبهم، كما يعرفون أبناءهم؛ فتمادوا في غيِّهم، وكفرهم وعنادهم؛ حسدًا واستكبارا.

وأوثر المضارع في التعبير عن مقاصدهم وأفعالهم وأقوالهم؛ للإيذان بأن هذه القبائح هي ديدنهم في كل عصر وآن، وليست أحداثًا وقعت وانقطعت[٢].

ونشأ عن التقرير في صدر الآيات تعجيب من تناقض أحوالهم، وتسجيل هذه القبائح عليهم، وذمهم بها، والتنبيه على عداوتهم وكيدهم للمؤمنين[٣].

• وقال تعالى[٤]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

---

(١) سورة النساء: الآية: ٥١.

(٢) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٢٠٨/١.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٠٨/٣/٢.

(٤) سورة النساء: الآية: ٤٩.

جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن اليهود، ودأبهم على تزكية أنفسهم، والادعاء أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الجنة لن يدخلها أحد سواهم، وأن الهدى هو ما هم عليه وحدهم.

وافتتحت بالتقرير بما كان منهم من تزكية لأنفسهم والتعجيب من تناقض أحوالهم، وتضمنت تكذيبهم عن طريق الاضراب الإبطالي في قوله ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ فما قبل (بل) من تزكية اليهود لأنفسهم باطل، وما بعدها صحيح، وهو أن المزكى من زكاه الله لا غيره[١].

وختمت بتقرير عدل الله عن طريق نفي الظلم عنه تعالى بقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ وهو الخيط الذي في شق النواة، ويضرب به المثل للتناهي في القلة والصغر[٢]، والمراد نفي الظلم من أصله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[٣].

• وقال تعالى[٤]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾.

تقرر الآية كفر صناديد مكة وكبرائها بالنبي ﷺ، وما جاء به من الحق، وصدهم أهلها عن الإيمان به، وإغرائهم بمحاربته؛ فكانوا سببًا في هلاك كثير منهم على الكفر، وقتلهم في بدر وأحد، مما يستوجب الخلود في النار، وبئس المصير[٥].

---

(١) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ١/٢٠٧، ٢٠٨.

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ٣٨٦.

(٣) سورة لقمان: من الآية: ١٣.

(٤) سورة إبراهيم: الآية: ٢٨.

(٥) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ٤/١٤١.

وعبر عن بعثة النبي ﷺ وما جاء به من الهدى بالنعمة؛ لأنها أعظم النعم، وأولاها بالشكر؛ لما فيها من صلاح حالهم ومآلهم، وأسباب سعادتهم في الدنيا والآخرة(١).

واشتمل النظم الحكيم على طباق دقيق بين النعمة والكفر؛ لأن الكفران سبب في النقمة؛ فأقيم مقام المسبب، للإشعار بأنهم ظلموا أنفسهم؛ فاستحقوا العذاب بكفرهم(٢).

ومن بلاغة الآية جريها مجرى المثل في العموم، وشمولها كل من كفر بالله، ورسالاته، وصد عن سبيله، وكان سببًا في هلاك قومه على الكفر(٣).

• وقال تعالى(٤): ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾.

سلَّط الله الشياطين على الكافرين، ومكنهم من إضلالهم، عقابًا لهم على توليهم(٥)، وأكد الخبر بـ(أن) واسمية الجملة لتقرير مضمون الكلام، وأنه واقع كما أخبر -عز وجل- ومن أصدق من الله قيلا(٦).

وعُدي الفعل بـ(على) لتضمن (أرسلنا) معنى سلَّطنا، وللدلالة على سيطرة الشياطين على الكفرة وتمكّنهم من إضلالهم(٧).

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ١٤١/٤.
(٢) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ١٧٩/٢.
(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٥٣٨/٢.
(٤) سورة مريم: الآية: ٨٣.
(٥) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ١٣٦/٥.
(٦) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٢٩٤/٢.
(٧) ينظر: حاشية القونوي على البيضاوي: ٢٩٢/١٢.

واستعير الأز المؤكد بمصدره، وهما من فرائد القرآن، لتأثير الشياطين في أوليائهم؛ لما في اللفظ من معاني الاستفزاز، والإلهاب، وشدة الإزعاج، والتهيج، وهو مأخوذ من التهاب النار في الحطب، وإيقادها تحت القدر لتغلي، وحمل الإنسان على أمر بحيلة ورفق حتى يفعله(١)، وكذلك الشياطين يوسوسون للكفرة، ويوحون إليهم زخرف القول غرورا، ويزينون لهم الكفر، ويصرفونهم عن الهدى، ويغرونهم بالمؤمنين، وينصرون بهم الباطل نصرة أهل الحق للحق؛ ليكونوا سواء في سواء الجحيم(٢).

- وقال تعالى(٣): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾.

يلفت الاستفهام التقريري الذي صدرت به الآية الأنظار إلى ما يثير العجب من حال المجادلين في آيات الله بالباطل كيف صرفوا عن الحق، وكذبوا بالقرآن وسائر الشرائع السماوية.

ويتضمَّن هذا التركيب الجاري مجرى المثل في عموم الخطاب التشهير بهم، وأن جدالهم في آيات الله لا يستقيم عند كل من له فهم سليم(٤).

وأضيفت الآيات إلى لفظ الجلالة الدال على الكمالات المطلقة؛ للإشعار بعظمها ووضوح دلالاتها، وفساد هذا الجدال وضلاله، وأنه صرف واضح عن الحق المبين(٥)، وعبر عن مجادلتهم وانصرافهم عن الحق بالفعل المضارع للدلالة على أن ذلك حالهم في كل عصر وآن.

---

(١) ينظر: لسان العرب: ٣٠٧/٥، ٣٠٨- أزز.

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ١٣٦/٥.

(٣) سورة غافر: الآية: ٦٩.

(٤) ينظر: آل حم: ٢٥٨.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٢٥٨.

وختمت الآية بـ﴿أَنَّهُمْ يُصَرِّفُونَ﴾ لبيان أنهم مستمرون في باطلهم، ولذلك صرفوا عن الحق جزاءً وفاقًا لكفرهم، وتكذيبهم بكل ما جاءهم من البينات القاطعة، والبراهين الساطعة[١].

• وقال تعالى[٢]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾.

جاءت هذه الآية في سياق وصف الشعراء، ومباينة أحوالهم لحال النبي ﷺ، وما أنزل عليه من قرآن وحكمة، وتقرير ما هو معلوم من ذهابهم في ضروب القول كل مذهب؛ دون وازع من دين، أو عاصم من خلق[٣].

مثلت حالهم بحال الهائمين على وجوههم في الأودية المختلفة، لا يهتدون سبيلا؛ لأن الغالب على الشعراء الذهاب عن سنن الهدى، والإفراط في المدح والهجاء، والتشبيب بالنساء؛ تبعًا لرغباتهم، وأوهامهم وخيالاتهم[٤].

والتركيب كله كناية عن سلامة متلقي القرآن من لدن حكيم عليم –وهو محمَّد ﷺ–من صفات النقص، والاتهام بالضلال، والتلبيس بالباطل[٥].

• وقال تعالى[٦]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٩.

(٢) سورة الشعراء: الآية: ٢٢٥.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٢٧٠/٦

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٠٩/١٩/٨.

(٥) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ١٢٦/٣.

(٦) سورة النساء: الآية: ٧٧.

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام –وهم بمكة – مأمورين بالصلاة والزكاة، والصبر على أذى المشركين، وكانوا يتحرقون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم؛ فلما أمروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم، وخاف من مواجهة الناس، وتمنّى لو لم يفرض القتال، لا شكًّا في الدين، ولا رغبة عنه، بل نفورًا عن الأخطار بالأرواح، وخوفًا من الموت بموجب الجبلة البشرية(١).

والاستفهام لتقرير الرؤية، والتعجيب من حال هؤلاء، والإيماء إلى أنه ما كان ينبغي أن يصدر عن أحدهم ما ينافي حالتهم الأولى(٢)، وعبر بـ﴿قِيلَ﴾ و﴿كُتِبَ﴾ بالبناء للمفعول؛ لأن القصد إلى تحقق صدور الفعل نفسه من غير تعلق غرض بالآمر(٣).

• وقال تعالى(٤): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ۖ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

تلت هذه الآية ما تقدم في إثبات وحدانية الله تعالى، وإحاطة علمه بما في السماوات والأرض، وما يكون بين المتناجين: قلوا آو كثروا(٥)، وكشفت جانبًا من مكر اليهود والمنافقين بالمسلمين، وتناجيهم بالكيد لهم، وقد نهوا عن ذلك، لكنهم عادوا للتناجي، والمجاهرة بالدعاء على النبي ﷺ؛ بقولهم له في التحية: السام عليكم؛ أي الموت الزؤام، وكانوا يقولون في أنفسهم، وفيما بينهم لو كان نبيًّا لعذبنا الله بما

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٢٠٣/٢.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٣/٢.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٣/٢.
(٤) سورة المجادلة: الآية: ٨.
(٥) ينظر: ص ١٨ من هذا البحث.

نقول[١].

وصدرت الآية بالاستفهام للتقرير، والتعجيب من شأن هؤلاء الذين لا دين لهم، ولا عهد، ولا خلق[٢]، وعبر عن تناجيهم والعودة إليه بالمضارع للدلالة على وقوع ذلك منهم مرات، وفيه تعريض بأنهم أهل عناد ومكابرة[٣].

وتضمَّنت جملة الشرط الإعلام بحرصهم على الإساءة إلى النبي ﷺ، وشدة عداوتهم له؛ بما ينبئ عن خاتمتهم السيئة في نار جهنَّم وبئس المصير[٤].

• وقال تعالى[٥]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

تقرر الآية ما علمه النبي ﷺ علمًا يقينيًّا بوحي من ربه أن المنافقين يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر وموالاة اليهود، ويحلفون الأيمان الفاجرة على أن ذلك لم يقع منهم.

ويتضمَّن الاستفهام التقريري معاني التعجيب للمخاطب، والوعيد والتهديد للمخبر عنهم، وجيء بالموصول لقصد وصفهم بما تضمنته جملة الصلة من توليهم لليهود، وعبر عنه بالماضي؛ لتحقق ذلك منهم[٦]، وسجلت عليهم الأيمان الكاذبة بعد ذلك بصيغة المضارع للدلالة على أن الحلف كذبًا كان ديدنهم وعادتهم[٧].

(١) ينظر: الكشاف: ٤/٧٤.
(٢) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٤/٢٣٩.
(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٨/٢١٩.
(٤) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٤/٢٤١.
(٥) سورة المجادلة: الآية: ١٤.
(٦) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٤/٢٤٤، ٢٤٥.
(٧) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٨/٢٢١.

وختم الآية بجملة الحال ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يبين شناعة ما فعلوا، ويقطع الأعذار عنهم في تولي اليهود وكثرة أيمانهم الفاجرة(١).

• وقال تعالى(٢): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

تكشف هذه الآية جانبًا آخر من خيانات المنافقين، وتآمرهم على المسلمين، وموالاتهم لليهود، ووعدهم لهم بالنصر؛ مع أنهم أجبن من ذلك، ولا يستطيعون نصرهم، ولا نصر أنفسهم.

والاستفهام للتقرير والتوقيف على سلوك المنافقين، والتحذير منهم؛ لأنهم لا عهد لهم حتى مع حلفائهم في الباطل(٣).

وقد عدل عن التعبير بالمنافقين -كما في سائر القرآن- إلى﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ لمناسبة هذه الصيغة الاستفهامية ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لأن المطرد فيها أن يليها الموصول (الذين) في مثل هذه السياقات(٤)، وسموا إخوانًا لاشتراكهم في الكفر والتكذيب بما جاء به النبي ﷺ(٥).

وختمت الآية بكشف زيف المنافقين، وبيان أنهم لا وفاء ولا عهد لهم مع عدو أو صديق، وقد أكد النظم الحكيم نسبة الكذب إليهم بشهادة الله، ولام التوكيد، وإن، واسمية الجملة، وكفى بذلك فضحًا للنفاق والمنافقين متى وكيف وجدوا، قاتلهم الله(٦).

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٨/٢٢١.
(٢) سورة الحشر: الآية: ١١.
(٣) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٤/٢٤٦، ٢٤٧.
(٤) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٤/٢٤٧.
(٥) ينظر: الكشاف: ٤/٨٥.
(٦) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: ٤/٢٤٨.

الخـــاتمة

تناولت الدراسة صيغة ﴿ألم تر﴾ في القرآن الكـــريم؛ مـــن حيـــث ألفاظهـــا، وتراكيبها، ودلالتها، والمقامات التي وردت فيها، وأظهر ما اشتملت عليه في ســـياقاتها المختلفة من دقائق وأسرار.

وقد تكررت في القرآن الكريم تكررًا ملحوظا، وجرت فيه مجـــرى المثـــل في عموم الخطاب، واختصَّت بلفت الأنظار إلى الأمور العظيمـــة، والكـــوائن العجيبـــة، والأحوال الغريبة؛ لإثبات وحدانية الله تعالى، والاستدلال بحقائق الكون على ربوبيتـــه وكمال قدرته، وأخذ العبرة من قصص الأمم السابقة، والإنباء عن غرائب من أحوال الناس عند نزول القرآن من الكافرين والمنافقين والمؤمنين.

وكان لها الصدارة في الجملة، والاستقلال عمَّا قبلها، وغلبت فيهـــا الرؤيـــة العلمية على البصرية، وتعدى فعلها بنفسه في الحقائق العظيمة، والـــدلائل البـــاهرة، وتعدى بحرف الجر (إلى) في الأحداث العجيبة، والأحوال الغريبة؛ بإبرازهـــا للعيـــان بصورة المحسوسات للأبصار.

وجاء الاستفهام فيها للتقرير، ونشأ عنه في كـــثير مـــن الســـياقات: تنبيـــه، وتعجيب، وامتنان، ومعان أُخرى تستفاد من المقام، وقرائن الأحوال.

وانفردت جملها ببعض التراكيب التي لم ترد مع غيرها في القرآن الكريم؛ مـــن مثل ﴿أَلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾، ﴿كَيْفَ فَعَلَ﴾.

وتصدر هذه الصيغة الشريفة هذه المعاني، واختصاصها بهذه المقامات، واقترانها بهذه التراكيب؛ باب من أبواب البيان العالي الذي يدعو إلى مزيد من التدبر لســـياقاتها المختلفة في القرآن الكريم، وبيان ما امتازت به عن غيرها من أساليب التقرير المنفي في القرآن، وعن صور الاستفهام الأخرى التي تضمَّنت فعل الرؤيـــة؛ بدراســـة موازنـــة تكشف عن الإعجاز البياني لهذه التراكيب، ونظائرها المتكررة في القرآن الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الإتقان في علوم القرآن. جلال الدين السيوطي. وبأسفل الصحائف: إعجاز القرآن للباقلاني. مكة المكرمة: توزيع دار الباز.

٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. أبو السعود العمادي. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٤- آل حم-غافر، فصلت-دراسة في أسرار البيان. محمد أبو موسى. الطبعة الأولى. القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.

٥- الإيضاح في علوم البلاغة. الخطيب القزويني. شرح وتعليق وتنقيح: محمد عبد المنعم خفاجي. الطبعة الخامسة. بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٦- البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. بيروت: دار الفكر، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٧- البرهان في علوم القرآن. بدر الدين الزركشي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: دار الجيل، ١٤٠٨/٥/١٩٨٨م.

٨- بلاغة الاستفهام التقريري في القرآن الكريم-دراسة أسلوبية. محمد مختار الشيباني. الجزائر: مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٩- البلاغة الاصطلاحية. عبده عبد العزيز قلقيله. الطبعة الرابعة. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

١٠- بلاغة القرآن الكريم-دراسة في أسرار العدول في استعمال صيغ الفعل. ظافر بن غرمان العمري. الطبعة الأولى. القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

١١- التحرير والتنوير. محمد الطاهر بن عاشور. تونس: دار سحنون.

١٢- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم. عبد العظيم المطعني. الطبعة الثالثة. القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

١٣- تفسير القرآن العظيم. الحافظ بن كثير. بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٤- تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. خرج آياته وأحاديثه: باسل عيون السود. الطبعة الأولى. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

١٥- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. المجموعة الكاملة-التفسير. المملكة العربية السعودية-عنيزة: مركز صالح بن صالح الثقافي، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٦- الجامع لأحكام القرآن. محمد بن أحمد القرطبي. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

١٧- حاشية القونوي على تفسير البيضاوي. عصام الدين الحنفي. ومعه حاشية ابن التمجيد، ضبط وتصحيح: عبد الله محمود محمد عمر، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

١٨- خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم ÷. الشحات محمد أبو ستيت. الطبعة الأولى. القاهرة: مطبعة الأمانة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١٩- دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل-التقديم والتأخير. عبد الهادي العدل. ضبط وتعليق: عبد السلام سرحان. القاهرة: دار الفكر الحديث.

٢٠- دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني. قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٤م.

٢١- ديوان النابغة الذبياني. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة الثانية. القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧م.

٢٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. شهاب الدين الالوسي. بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٢٣- السيرة النبوية. ابن هشام. حققها وضبطها: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي. الطبعة الثانية. القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

٢٤- شرح كافية ابن الحاجب. رضي الدين الإستربادي. قدم له ووضع حواشيه وفهارسه: إميل يعقوب. الطبعة الأولى. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٢٥- صحيح البخاري. الإمام محمد بن إسماعيل البخاري. وبهامشه تعليقات لمحمد بن صالح العثيمين. الطبعة الأولى. القاهرة: دار المستقبل، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٢٦- صحيح مسلم. الإمام مسلم بن الحجاج. الطبعة الأولى. بيروت: دار بن حزم، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٧- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب. شرف الدين الطيبي. الطبعة الأولى، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.

٢٨- الكشاف. الزمخشري. ومعه كتاب الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال. بيروت: دار المعرفة.

٢٩- لسان العرب. جمال الدين بن منظور. بيروت: دار صادر.

٣٠- مصابيح المغاني في حروف المعاني. ابن نور الدين الموزعي. تحقيق: عائض العمري. الطبعة الأولى. القاهرة: دار المنار، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٣١- المطول. سعد الدين التفتازاني. إستانبول: مطبعة أحمد كامل، ١٣٣٠هـ.

٣٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. محمد فؤاد عبد الباقي. الطبعة الثانية. بحاشية المصحف الشريف. القاهرة: دار الحديث، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٣٣- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. جمال الدين ابن هشام الأنصاري. قدم له ووضع حواشيه وفهارسه: حسن حمد. الطبعة الأولى. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٣٤- مفتاح العلوم. أبو يعقوب السكاكي. تحقيق: عبد الحميد هنداوي. الطبعة الأولى. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٠/٥/٢٠٠٠م.

٣٥- المفردات في غريب القرآن. الراغب الأصفهاني. ضبط: هيثم طعيمي. الطبعة الأولى. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٣٦- مواهب الفتاح. ابن يعقوب المغربي-ضمن شروح التلخيص. بيروت: دار الكتب العلمية.

٣٧- النظم القرآني في سورة الرعد. محمد بن سعد الدبل. القاهرة: دار النصر للطباعة، ١٩٨١م.

محتويات البحث

م	الموضوع	الصفحة
١.	ملخص البحث	٢٨٢٢
٢.	Abstract	٢٨٢٣
٣.	المقدمة	٢٨٢٤
٤.	تمهيد لمحة موجزة عن الاستفهام في القرآن الكريم	٢٨٢٦
٥.	المبحث الأول: الألفاظ والتراكيب	٢٨٢٩
٦.	المبحث الثاني: المقامات والأسرار	٢٨٣٩
٧.	أولًا: إثبات وحدانية الله	٢٨٣٩
٨.	ثانياً: إثبات الحقائق الكونية	٢٨٤٣
٩.	ثالثاً: القصص القرآني	٢٨٤٩
١٠.	رابعاً: بيان أحوال الخلق وانصرافهم عن الحق	٢٨٥٦
١١.	الخاتمة	٢٨٦٥
١٢.	ثبت المصادر والمراجع	٢٨٦٦
١٣.	محتويات البحث	٢٨٧٠

تم بحمد الله